الفصل الأول

النيزك والعلبة السوداء

كان الليل على هضبة المقطم ثقيلاً وفضيّاً، كأن السماء قد سكبت فوق الصخور كل فضتها الباردة. جلس يوسف صدقي في حديقته الصغيرة، وحيداً كما اعتاد منذ سنوات، يحدّق في النجوم التي كانت تبدو أقرب إليه هنا مما كانت في القاهرة. لم يكن يرسم في تلك الليلة. الفرشاة جفت منذ أيام، واللوحات الناقصة مكدسة في ركن المرسم كأجساد نائمة لم يستيقظ أحد ليلمسها.

كان الهواء معرّقاً برائحة الياسمين البري والغبار القديم. وفجأة، قطع السكون وميض رأسي حادّ، أبيض مزرقّ، يشقّ السماء من أعلاها إلى أسفلها كسيف إلهيّ. تبعه أزيز خافت، ثم حفيف طويل كأن شيئاً هائلاً يتمزّق في الهواء. ارتجّت الأرض تحت قدميه خفيفة، وسمع صوت ارتطام بعيد في الجهة الشرقية من الهضبة، حيث تنحدر الصخور نحو الوادي الجاف.

ظل يوسف جالساً طويلاً، قلبه يدقّ بعنف لم يعرفه منذ زمن. لم يكن عالماً، ولا فلكياً، بل رساماً تعلق لوحاته في قاعات القاهرة وبيروت ودمشق، وقال عنه النقاد إنه «يغنّي الحياة ويضاعف وقعها». لكنه كان قد سئم المدن والنقاد والحياة الصاخبة، فاختار هذه الفيلا المنعزلة فوق المقطم، حيث لا شيء يزعجه سوى الرياح وأصوات الصقور.

انتظر الفجر بفارغ الصبر. لم ينم. كان يقوم بين الحين والآخر إلى النافذة يتأمل البقعة التي سقط فيها النيزك، كأنه يخشى أن يختفي قبل أن يصل إليه. وحين بدأ الأفق يميل إلى الرمادي الفضي، وتجمّع الندى على أوراق شجر الحور كأنها مغطاة بغبار الماس، تسلّق الهضبة الصغيرة بقلق.

لم يكن العثور على المكان صعباً. كان النيزك قد اقتحم أشجار الربيع المورقة بعنف، أحدث حفرة واسعة، وكوّن تلاً من الرمال والصخور المكسّرة. تتاثر حطامه في قطع سوداء حادة، كلها لا تزال ساخنة بحيث يستحيل لمسها. انتظر يوسف حتى بردت قليلاً، ثم تنقّل بينها بلهفة، يقلبها رأساً على عقب، يفحصها بفضول الفنان لا فضول العالم.

وفجأة لمح شيئاً غريباً.

علبة مربعة صغيرة، سوداء تماماً، نصف مطمورة داخل إحدى القطع الصخرية الكبيرة. قدر ضلعها بنحو عشرة سنتيمترات. بدت مصنوعة من نسيج مدبوغ متين، عازل تماماً

للحرارة. حاول فتحها بأصابعه، ثم بالأحجار الحادة، فلم تلن. أسرع عائداً إلى الفيلا وهو يقبض عليها بيده اليسرى، ورأسه يغلي بأفكار عن رسائل قادمة من كواكب بعيدة.

في حجرة نومه، تحت الضوء الأصفر للمصباح، أخذ يفحص المادة الغريبة. كانت تبدو للعين كنسيج قوي، لكنها كانت شيئاً آخر تماماً: مقاومة كالماس، ومرنة كالصلب. مضت ساعات قبل أن يخطر بباله أن يصبّ عليها قليلاً من الماء. وللدهشة، رقّت المادة فجأة، وأصبحت تشبه النسيج الليفي الرطب. كان واضحاً أنها صُمّمت لتتحمل حرارة الدخول في الغلاف الجوي وصدمة الارتطام، ثم ترقّ وتنفتح حين تهبط فوق عالم رطب دافئ.

فتحها بحذر بالغ.

داخلها لم يكن هناك كتابة كونية غامضة، ولا نموذج مصغّر لمعبد، ولا آلة عجيبة. لم يكن هناك سوى بذرتين بنيّتين ذابلتين، يبلغ طول كل منهما ثلاثة سنتيمترات تقريباً. خاب أمله للحظة، ثم انتعشت آماله من جديد. خطر له أن هاتين البذرتين ليستا عاديتين. ربما أراد سكان كوكب بعيد أن ينشروا زراعتهما في العوالم الأخرى.

خرج إلى الحديقة قبل أن يكتمل ضوء الصباح. اختار ركناً خالياً من الأعشاب، بعيداً عن شجر الحور والنخيل الصغير الذي زرعه بنفسه، وجعل بين البذرتين مسافة ثلاثة أمتار. غرسهما بعمق مناسب، وروّاهما بالماء بعناية، ثم وقف ينظر إليهما طويلاً كأنه ينتظر أن تنبتا أمام عينيه في تلك اللحظة.

في الأيام التالية نسي لوحاته تماماً. كان أول ما يفعله صباحاً هو الخروج إلى الحديقة، وآخر ما يفعله قبل النوم هو النظر إليهما. وبعد أسبوعين ظهرت أول البراعم: قضبان خضراء صغيرة قوية، تختلف عن أي نبات عرفه على وجه الأرض، رغم أنه كان يدرس النباتات لسنوات ليخلّدها في ألوانه.

كان يوسف لا يزال وحيداً في تلك الأيام. لم تكن ليلى قد وصلت بعد. كانت لا تزال في القاهرة، تجهّز حقائبها لتأتي وتعيش معه بعد أن ضاقت بالحياة هناك. لم يكن يعلم أن تلك البذرتين ستغيّران كل شيء: حياته، وحياة أخته، وحتى مفهوم الحب نفسه.

وقف في تلك الليلة الأولى بعد الزراعة ينظر إلى السماء التي جاء منها النيزك، وهمس لنفسه بصوت خافت:

«ماذا جلبتِ لي أيتها النجوم هذه المرة؟»

ولم يكن الجواب ليأتي إلا بعد أسابيع طويلة، حين تنفتح الأوراق الكاسية عن رأسين أخضرين، وتبدأ قصة الحب المستحيل.

الفصل الثاني

البراعم الخضراء

مضى أسبوعان كاملان قبل أن يحدث شيء.

كان يوسف يخرج كل صباح مع أول ضوء، يركع أمام الركن الذي زرع فيه البذرتين، يفحص التربة بأصابعه كما يفحص الرسام سطح اللوحة قبل أن يضع اللون الأول. يرويها بماء نظيف بارد، ثم يجلس على حجر قريب وينتظر. في المساء كان يعود مرة أخرى، يحمل مصباحاً صغيراً، يحدّق في البقعتين المظلمتين كأنهما قد تخفيان سراً لن يكشفه إلا الليل.

في صباح اليوم الخامس عشر، رأى أول البراعم.

كانا قضيبين أخضرين صغيرين، قويين، يبرزان من التربة كإصبعين مشيرين إلى السماء. لونهما أخضر قاتم لامع، وسطحهما أملس تماماً بلا أي ورقة أو شعيرة. لم يشبهها أي نبات رآه يوسف في حياته، رغم السنوات التي قضاها يدرس أشجار الجميز على ضفاف النيل، ونخيل الواحات، والزهور البرية في جبال سيناء. توقف طويلاً أمامهما، قلبه يدقّ بعنف غريب، ثم ابتسم ابتسامة خافتة وقال بصوت مسموع:

«مرحباً بكما... أيها الزائران».

في الأسابيع التالية نما العمودان بسرعة مذهلة. بعد شهر أصبح طول كل منهما حوالي متر، وكلاهما مغطى بغطاء محكم من الأوراق الخضراء الكاسية السميكة. كانا أكثر سمكاً في الوسط منه عند القمة أو القاعدة، وبدا أحدهما أرفع قليلاً ولونه أخضر فاتح زاهي، بينما كان الآخر أسمك وأعمق اخضراراً. اختلف شكلهما عن أي نبات أرضي عرفه يوسف. استمر في ريّهما بعناية فائقة، ونسي لوحاته تماماً. حتى الألوان في مرسمه بدأت تجف، والفرش تتيبس، وهو لا يبالي.

ثم جاءت اللحظة التي غيّرت كل شيء.

في صباح باكر من أوائل يونيو، خرج يوسف كعادته. كانت الأوراق الكاسية قد بدأت تنفرج ببطء إلى الوراء من قمة كل عمود. وقف ينظر مذهولاً. شيئاً فشيئاً انكشفت القمتان من الداخل. لم يكن ما رآه براعم زهر أو أوراق جديدة... بل شيئاً يشبه قمتي رأسي شخصين.

من العمود الأرفع برزت كتلة ناعمة من الشعر الأخضر الفاتح الزغبي، كأنها قمة رأس فتاة. ومن العمود الآخر برز شعر أقصر وأكثف وأعمق اخضراراً، كأنه شعر رجل. حدّق يوسف طويلاً، فمه مفتوح، وعيناه لا تصدقان ما تريان. اقترب أكثر، ومدّ يده بتردد، ثم سحبها بسرعة كأن شيئاً قد لسعه.

ظلا الرأسان مطمورين جزئياً داخل الأوراق الرقيقة، لكن ملامحهما كانت تتضح شيئاً فشيئاً. بدت الوجوه بشرية تماماً، لكن بلون أخضر ناعم برّاق، والعيون لا تزال مغلقة تحت جفون رقيقة.

شعر يوسف برهبة عميقة اختلطت بفرحة مجنونة. تراجع خطوة، ثم جلس على الأرض ينظر إليهما ساعات طويلة. لم يخبر أحداً. كان يخشى أن يسمع العلماء بالأمر فيأتون ويأخذون البذرتين أو العمودين، يفحصونهما ويشرحونهما، وهذا ما لم يرده مطلقاً. كان هذا السر ملكه وحده، في حديقته الصغيرة فوق هضبة المقطم.

في الليالي التالية كان يخرج إليهما قبل النوم، يجلس القرفصاء أمامهما، ويتحدث بصوت خافت كمن يخاطب طفلين نائمين:

«من أين جئتما؟... وما الذي تنتظرانه هنا؟»

ولم يكن الجواب ليأتي بعد. الأوراق الكاسية لا تزال تحميهما، والجذور لا تزال تضرب عميقاً في تربة الأرض. لكن يوسف شعر، بحدس الفنان الذي يرى ما وراء الظاهر، أن شيئاً عظيماً ورهيباً على وشك أن يولد في حديقته.

وفي تلك الليلة نفسها، في شقتها الصغيرة في القاهرة، كانت ليلى صدقي تضع آخر ملابسها في الحقيبة الكبيرة، وتنظر إلى صورة أخيها المعلقة على الجدار. ابتسمت ابتسامة متعبة وهمست:

«غداً أكون عندك يا يوسف... لعل الوحدة تخف قليلاً».

لم تكن تعلم أن الوحدة التي تنتظرها هناك لن تكون كأي وحدة عرفتها من قبل.

الفصل الثالث

ليلى تصل

وصلت سيارة الأجرة القديمة إلى نهاية الطريق الترابي قبل غروب الشمس بقليل. نزلت ليلى صدقي وهي تحمل حقيبتين كبيرتين، ونظرت حولها بدهشة ممزوجة بالإعياء. كانت هضبة المقطم تبدو في ضوء الأصيل أكثر وحشة وجمالاً مما تذكر. الصخور الصفراء المحمرّة، والفيلا البيضاء الصغيرة التي اختارها أخوها منذ سنوات، والحديقة التي كانت دائماً خضراء رغم قسوة المكان.

وقفت لحظة تمسح الغبار عن جبينها، ثم نادت بصوت مرتفع:

«يوسف!... أنا هنا».

خرج من الباب الخلفي وهو يمسح يديه بمنديل قديم. بدا أنحف مما كانت تتوقع، وشعره الأسود أطول قليلاً، وعيناه تحملان ذلك البريق الغريب الذي عرفته فيه منذ الصغر حين كان يغرق في لوحة جديدة. ابتسم ابتسامة واسعة وركض نحوها، فاحتضنها بقوة.

«أخيراً جئتِ... كنت أخشى أن تغيّري رأيك».

ضحكت ليلى وهي تربت على كتفه:

«وأتكك هنا وحدك تكلم الأشجار؟ مستحيل. شقتي في القاهرة أصبحت خانقة، والجامعة انتهت، وأنا محتاجة إلى هواء نظيف... وإلى أخي».

أدخلها إلى الفيلا. كانت الحجرات بسيطة ونظيفة كما تركها آخر مرة زارته قبل عامين، لكن شيئاً ما كان مختلفاً. اللوحات في المرسم مغطاة بأقمشة بيضاء، والألوان جافة في أنابيبها، والفرش مركونة كأن أحداً لم يلمسها منذ أسابيع. سألت وهي تشير إلى المرسم:

«ألا ترسم هذه الأيام؟».

هزّ يوسف رأسه وتجنب عينيها:

«هناك... شيء آخر يشغلني».

في الصباح التالي استيقظت ليلى على صوت حركة في الحديقة. نظرت من نافذة غرفتها فرأت أخاها راكعاً أمام ركن بعيد، يتحدث بصوت خافت كمن يناجي أحداً. ارتدت ثوباً خفيفاً وخرجت حافية القدمين على العشب البارد.

رأت العمودين الأخضرين فوراً.

كانا يقفان كتمثالين غريبين، طول كل منهما يزيد قليلاً عن المتر، مغطى بأوراق كاسية كثيفة، أحدها أرفع وأفتح لوناً، والآخر أسمك وأغمق. اقتربت ببطء، ووقف يوسف فجأة كمن أُمسك متلبساً بجريمة.

«ما هذا يا يوسف؟» سألت وهي تحدّق.

حاول أن يبتسم ابتسامة عادية:

«نباتات... نباتات نادرة جاءتني من... من مكان بعيد. أجرب زراعتها».

لم تقتنع. اقتربت أكثر ومدّت يدها لتربت على الأوراق الكاسية للعمود الأفتح لوناً. كانت الأوراق باردة وناعمة بشكل غريب، وكأنها تتنفس تحت أصابعها. سحبت يدها بسرعة.

«هذه ليست نباتات عادية. أنت تعرف ذلك».

ظل صامتاً لحظة طويلة، ثم قال بصوت منخفض:

«لا تسألي كثيراً الآن... بعد أيام ستفهمين. فقط... لا تخبري أحداً».

قضت ليلى الأيام التالية تراقب أخاها من بعيد. كان يقضي ساعات طويلة أمام العمودين، يرويها، يهمس لهما، يجلس القرفصاء وينظر إليهما كعاشق ينتظر حبيبته. في الليل كانت تسمعه يخرج إلى الحديقة بعد منتصف الليل، فيقلق نومها.

في الليلة الثالثة بعد وصولها، خرجت خلفه خلسة. اختبأت خلف شجرة حور ورأت ما جعل قلبها يخفق بعنف. الأوراق الكاسية في قمة العمود الأرفع كانت قد انفرجت أكثر، وبدا واضحاً الآن شكل رأس بشري أخضر ناعم، وشعر زغبي فاتح يتمايل قليلاً مع النسيم. والعمود الآخر يكشف عن رأس أخشن وأغمق.

همست ليلى لنفسها وهي ترتجف:

«يا إلهي... ماذا وجدتَ يا أخي؟».

ولم تكن تعلم بعد أن هذين الكائنين سيسرقان منها ومن أخيها كل شيء: السلام، والوحدة القديمة، وحتى معنى الحب نفسه.

الفصل الرابع

الهمسات الأولى

في الليلة الرابعة بعد وصول ليلى، انفتحت الأوراق الكاسية تماماً.

كان القمر بدراً، يسكب ضوءه الفضي على الحديقة كحليب بارد. وقف يوسف أمام العمودين وهو يرتجف من الرهبة والدهشة. الرأس الأخضر الفاتح ارتفع ببطء، والشعر الزغبي الناعم تموج مع النسيم كأنه حي. ثم انفتحت العينان.

كانتا خضراوين لامعتين، بؤبؤاهما أوسع من عيون البشر، وفيهما عمق يشبه عمق الغابات القديمة. نظرت إليه الفتاة النباتية طويلاً، ثم امتدت من جانبها ذراع رفيعة لولبية، خضراء ناعمة كالحرير، وانتهت بأصابع دقيقة تشبه بتلات الزهر. لمسته على خده لمسة خفيفة جداً.

شعر يوسف برعشة سرت في جسده كله، كتيار كهربائي دافئ لذيذ. همست الفتاة بصوت غريب، صوت يشبه حفيف الأوراق حين يمر بها نسيم الليل، لكنه كان يحمل نغماً واضحاً. لم يفهم الكلمات، لكنه فهم المعنى: ترحيب... وفضول... وشيء يشبه الحنان.

ابتسم رغم ارتباكه ومدّ يده ببطء. لمست أصابعه ذراعها اللولبية. كانت باردة في البداية، ثم دفئت تحت لمسته، وأفرزت رحيقاً خفيفاً شفافاً له رائحة حلوة تشبه رائحة الياسمين الممزوج بالعسل. سرت النشوة في عروقه فأغلق عينيه لحظة.

من خلف شجرة الحور كانت ليلى تراقب كل شيء.

كانت قد خرجت خلسة بعد أن سمعت حركة أخيها، واختبأت في الظل. رأت الذراع الخضراء تلامس وجه يوسف، ورأت كيف ارتخى جسده كأنما سحر. شعرت بغيرة غريبة اختلطت بالخوف. هذا الكائن... هذه الفتاة النباتية... كانت تسرق أخاها أمام عينيها.

في الليلة التالية عاد يوسف مبكراً إلى الحديقة. جلس القرفصاء أمام نورا (هذا الاسم الذي اختاره لها في سرّه، لأنه ذكرته بنور الفجر الأخضر). مدت إليه ذراعيها الاثنتين هذه المرة، ولفّتهما برفق حول عنقه وكتفيه. اقترب وجهها منه، والهمسات تتصاعد كأغنية بعيدة. شعر أن عقله يخدر لذيذاً، وأن كل هموم السنين تتبخر.

«أنتِ... جميلة بشكل لا يوصف» همس لها بالعربية، رغم أنه كان يدرك أنها قد لا تفهم. لكنها أمالت رأسها كأنما تصغي، ثم لمست شفتيه بطرف أصبعها اللولبي. كان الطعم حلواً وحاراً في آن واحد.

من بعيد رأت ليلى المشهد، وابتعدت بخطوات مرتجفة. عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب، وجلست على السرير تحدّق في الظلام. كانت تفكر في العمود الآخر، ذلك الذي بدا أخشن وأقوى، والذي كانت عيناه الخضراوان القاتمتان تتابعان أخاها بغيرة واضحة حتى من مسافة.

في الصباح حاولت ليلى أن تواجه يوسف.

«هذه ليست نباتات يا أخي. هذه... كائنات. وأنت تتحدث إليها وتلمسها كأنك...»

قاطعها بهدوء حازم:

«لا تخافي. هما لا يؤذيان. وأنا... أحتاج إلى هذا الآن».

لم تقل شيئاً آخر. لكنها منذ تلك اللحظة بدأت تراقب أكثر، وتقترب في الليل خلسة، وتتعلم شيئاً فشيئاً كيف تميز الهمسات المختلفة. وكانت عينا الرجل النباتي، ثور، تتبعانها هي الأخرى في الظلام، كأنه ينتظر دوره.

أما يوسف فكان قد بدأ يغرق. كل لمسة من نورا كانت تجعله ينسى اللوحات والمدينة وحتى أخته الجالسة في الغرفة المجاورة. كان الحب ينبت في صدره بأسرع مما نبتت البذور في تربة حديقته، وكان يعرف، بحدس غامض، أن هذا الحب لن يكون سهلاً... ولن يكون ممكناً تماماً.

الفصل الخامس

الجمال الأخضر

لم يكن يوسف قادراً على الرسم بعد الآن، لكنه كان يرسمها في عقله كل لحظة.

نورا.

اختار الاسم لأنه كان يذكّره بلون الفجر حين ينعكس على أوراق الشجر بعد المطر. كانت تقف الآن حرة جزئياً من الأوراق الكاسية، وجسمها الأخضر الرشيق يرتفع بكبرياء من الكأس الخارجي كالزهرة التي قررت أخيراً أن تكشف عن سرّها. طولها قريب من طوله، لكن قوامها أنحف وأكثر انسيابية. بشرتها ـ إن صحّ أن تُسمّى بشرة ـ كانت ناعمة كالحرير المبلل، لونها أخضر فاتح يميل في بعض المواضع إلى الزمردي اللامع، وفي مواضع أخرى إلى الأخضر الذهبي تحت ضوء القمر.

شعرها الزغبي الكثيف يتساقط على كتفيها وظهرها كشلال من الضوء الأخضر. عيناها الكبيرتان اللامعتان لا تشبهان عيون البشر؛ كان فيهما عمق الغابات البكر وشيء من حزن الكواكب البعيدة. حين تنظر إليه كان يشعر أنها ترى ما وراء جلده، إلى ذلك الفراغ القديم الذي ملأه لسنوات بالوحدة والألوان.

في الليالي التالية كان يجلس أمامها ساعات طويلة. تمد ذراعيها اللولبيتين الرفيعتين وتلامس وجهه وشعره ويده. في كل مرة تفرز رحيقاً خفيفاً شفافاً يسري في جسده كخمر دافئة. بدأ يميز همساتها. لم تكن كلمات بالمعنى البشري، لكنها كانت صوراً وأحاسيس: ضوء... ماء... جذور تبحث عن تربة دافئة... وحدة طويلة في الظلام بين النجوم... ثم فجأة دفء يدين بشريتين.

«أحبكِ» همس لها ذات ليلة وهو يضغط جبهته على جبهتها الباردة.

ارتعشت أوراقها الصغيرة التي نبتت حديثاً على كتفيها، وأ Tightened ذراعيها حول عنقه أكثر. همست شيئاً بدا له كأنه «أخيراً... وجدتك».

كانت ليلى تراقب من نافذتها في معظم الليالي. كانت ترى كيف يذوب أخوها أمام هذا الكائن الأخضر، وكيف ينحني رأسه على كتفها كأنما وجد أخيراً ما كان يبحث عنه طوال عمره. شعرت بغيرة مرة، ثم بفضول أعمق. في إحدى الليالي اقتربت أكثر من الحديقة، واختبأت خلف شجرة الجميز القديمة. رأت الرجل النباتي ـ ثور ـ يقف في ظله، عيناه القاتمتان تتابعان يوسف ونورا بغيرة واضحة. ذراعاه اللولبيتان الضخمتان كانتا تتحركان ببطء كأفعى تستعد للانقضاض.

حين التقت عيناها بعينيه، لم يتحرك. فقط أمال رأسه قليلاً ونظر إليها طويلاً. شعرت ليلى برعشة سرت في جسدها، ليست رعشة خوف تماماً... بل شيئاً آخر أغرب وأعمق.

عادت إلى غرفتها وهي تتنفس بصعوبة. جلست أمام المرآة وحدّقت في وجهها البشري الشاحب، في عينيها البنيتين العاديتين، في شعرها الأسود الذي بدا فجأة باهتاً أمام ذلك الشلال الأخضر الذي رأته على كتفي نورا. همست لنفسها:

«ماذا يحدث لنا هنا؟».

وفي الحديقة كان يوسف لا يزال جالساً عند قدمي نورا، يروي لها قصصاً عن القاهرة والنيل واللوحات التي رسمها، وهي تصغي بهمساتها الهادئة، وذراعاها اللولبيتان تلامسان شعره بين الحين والآخر كأنها تطمئنه أنه لم يعد وحيداً.

كان الجمال الأخضر يبتلعه شيئاً فشيئاً، وكان الحب ينمو بينهما أسرع من أي نبات عرفته الأرض. ولم يكن أحد منهما يدرك بعد أن هذا الحب، رغم كل رقيقه ونشوته، كان يحمل في جذوره بذرة الاستحالة نفسها.

الفصل السادس

الاتحاد الأول

كان القمر في تلك الليلة محاقاً، والظلام كثيفاً دافئاً كحضن. خرج يوسف إلى الحديقة بعد أن تأكد أن ليلى قد نامت. كان قلبه يدقّ بعنف يعرفه للمرة الأولى. نورا كانت في انتظاره، أوراقها الكاسية قد انزاحت تماماً عن جسدها الآن، فبدت عارية تماماً تحت ضوء النجوم الباهت.

وقف أمامها مذهولاً. لم يكن جسدها يشبه أي جسد امرأة رآها في حياته. ثدياها صغيران مستديران، لونهما أخضر أفتح قليلاً من بقية جسدها، وحلماتهما بارزة بلون زمردي داكن، تفرزان رحيقاً لامعاً كقطرات الندى. خصرها نحيل، وبطنها أملس، وأسفل منه انفرج فرجها النباتي كوردة ليلية رطبة، شفاهها الخضراء السميكة تلمع بالسوائل الشفافة، ومن داخلها تخرج خيوط رفيعة خضراء ناعمة تتحرك ببطء كأنها تتنفس.

مدت ذراعيها اللولبيتين ولفّتهما حول عنقه، وجذبته إليها بقوة ناعمة. التصق جسداهما. شعر يوسف ببرودة بشرتها في البداية، ثم بدفء غريب ينبعث منها كأنها تمتص حرارته وتعيد إرسالها إليه مضاعفة. همست في أذنه بصوت الحفيف المعتاد، لكنه هذه المرة كان أوضح: صوراً من ضوء وأجساد تندمج وجذور تلتف حول جذور.

قبلها على فمها. كان فمها بارداً حلواً، ولسانها ـ إن كان لساناً ـ رفيعاً وطويلاً قليلاً، يلتف حول لسانه كأنه يذوقه. سرت النشوة في جسده كالنار. نزلت يداه إلى ثدييها، فوجد الحلمات الصلبة تفرز المزيد من الرحيق على أصابعه. تذوقه. كان حلواً وحاراً ومسكراً، فشعر برأسه يدور.

جذبته نورا إلى العشب الطري تحتها. استلقت على ظهرها، وذراعاها لا تزالان تلفانه. فك يوسف ملابسه بسرعة مرتجفة، ثم انحنى فوقها. لمس فرجها بأصابعه أولاً. كانت الشفتان الخضراوان رطبتين ودافئتين بشكل مذهل، والخيوط الدقيقة التفت حول أصابعه وامتصتها برفق. أدخل إصبعاً، فوجدها ضيقة ودافئة وتنبض.

حين أدخل قضيبه فيها أخيراً، شهق الاثنان معاً. كان داخلها مختلفاً عن أي شيء بشري: ضيقاً ومرناً ومليئاً بنتوءات ناعمة تتحرك وتضغط عليه من كل جانب، والخيوط الخضراء تلتف حول قضيبه وتمتصه بشهوة واضحة. بدأت تتحرك تحته بحركات متموجة كالأمواج، وذراعاها اللولبيتان تشدانه إليها بقوة متزايدة.

الجماع كان بطيئاً في البداية، ثم تسارع. كل دفعة كانت تجعل الرحيق يسيل أكثر بين فخذيهما، ورائحة حلوة مسكرة تملأ الهواء. شعر يوسف أن شيئاً ينتقل بينهما: ليس فقط اللذة الجسدية، بل طاقة ضوئية دافئة تسري من جسدها إلى جسده وتعود. رأى خلف جفنيه صوراً غريبة: غابات خضراء عملاقة، سماء بلون الزمرد، كائنات تشبههما تتعانق تحت ضوء نجم بعيد.

ذروتها جاءت أولاً. ارتعش جسدها كله، والأوراق الصغيرة على كتفيها وظهرها انتصبت، وصرخ همسها عالياً كريح في الأشجار. ضغطت عليه من الداخل بقوة مذهلة، والخيوط امتصت قضيبه بعنف لذيذ حتى أفرغ هو أيضاً داخلها بدفقات ساخنة متتالية. لكنها لم تتوقف. استمرت تتحرك تحته، وذراعاها تلامسان ظهره وخصره، حتى جاءته ذروة ثانية أعنف، ثم ثالثة جعلته يرتجف كمن يصعقه التيار.

بعدها استلقيا متعانقين على العشب. كانت نورا تهمس في أذنه بصوت راضٍ وسعيد، ويداها اللولبيتان تمسحان العرق عن جبينه. قبل شعرها الأخضر الزغبي وهمس:

«هذا... مستحيل. وأنتِ حقيقية».

من نافذة غرفتها كانت ليلى واقفة في الظلام، ترى الظلين المتعانقين على العشب، وتسمع الهمسات والشهقات الخافتة. شعرت بحرارة غريبة تسري بين فخذيها، وبدموع حارة في عينيها. أغلقت النافذة ببطء وعادت إلى سريرها، لكن النوم لم يأتِ.

في الحديقة كان الرجل النباتي، ثور، يقف في ظله بعيداً، عيناه القاتمتان تشتعلان بغيرة صامتة رهيبة، وذراعاه الضخمتان تتحركان ببطء كأنهما تستعدان لشيء لم يأتِ وقته بعد.

الفصل السابع

ليالٍ من النشوة

منذ تلك الليلة الأولى لم يعد يوسف يستطيع الابتعاد عن نورا أكثر من ساعات قليلة.

كل مساء، بعد أن تغيب ليلى في غرفتها، كان يخرج إلى الحديقة كمن يسير في حلم. كانت نورا في انتظاره دائماً، جسدها الأخضر يلمع تحت ضوء النجوم، وذراعاها اللولبيتان ممدودتان نحوه قبل أن يصل. الجماع لم يعد حدثاً واحداً، بل طقساً يتكرر ويتعمق كل ليلة.

في الليلة الثانية أخذته هي.

رفعته ذراعاها القويتان بلطف وثبتته واقفاً، ثم التفت حول جسده كأغصان حية. لفّت إحدى ذراعيها حول خصره، والأخرى حول رقبته، ورفعت نفسها عليه. أدخلت قضيبه داخلها دفعة واحدة وهي تهمس بصوت عالٍ هذه المرة، صوت يشبه الرياح حين تعصف بالأشجار. تحركت عليه بحركات دائرية متموجة، والرحيق يسيل بغزارة على فخذيه ويقطر على العشب. شعر بالخيوط الداخلية تلتف حول قضيبه وتمتصه بشهوة متوحشة، وكلما حاول الإبطاء شدّته هي بقوة أكبر. ذروتها جاءت عنيفة، ارتجف جسدها كله وأطلقت همسة طويلة حادة كصراخ، فدفعته هو أيضاً إلى الإنزال العميق داخلها.

في الليلة الثالثة اكتشف الجنس الفموي.

انحنت نورا أمامه على العشب، وشعرها الأخضر الزغبي يتساقط على وجهه. فتحت فمها ـ ذلك الفم البارد الحلو ـ وأخذت قضيبه بين شفتيها. كان لسانها الرفيع الطويل يلتف حوله كالأفعى، ويمتصه بينما تفرز رحيقاً كثيفاً يسيل على خصيتيه. أمسك بشعرها الأخضر وبدأ يتحرك داخل فمها ببطء أولاً ثم بسرعة متزايدة. هي لم تقاوم، بل شدّته إليها أكثر بذراعيها، حتى أفرغ في حلقها بدفقات ساخنة متتالية. ابتلعت كل شيء بهدوء، ثم رفعت رأسها ولعقت شفتيها كأنها تذوق أجمل شيء في الكون.

بعدها أضجعه على ظهره، وشبكت ذراعيها اللولبيتين حول فخذيه، ووضعت فرجها الوردي-الأخضر فوق فمه. «ذوقني» همست بوضوح هذه المرة. أطاع. كان طعمها حلواً وحامضاً ومسكراً، والخيوط الدقيقة تتحرك على لسانه وتفرز المزيد كلما لعق أعمق. ذروت فوق فمه مرتين متتاليتين، والسوائل الشفافة تملأ فمه وتسيل على ذقنه وعنقه.

كانت ليلى تسمع كل شيء.

في معظم الليالي كانت تقف خلف النافذة أو تختبئ خلف الأشجار، ترى الأجساد تتعانق وتندمج، تسمع الشهقات والهمسات الرطبة. كانت تشعر بحرارة تتصاعد بين فخذيها رغم إرادتها، وبغيرة مرة تمزق صدرها. في إحدى الليالي لم تحتمل، عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب، ووضعت يدها بين ساقيها وهي تتخيل الذراعين اللولبيتين حولها هي بدلاً من أخيها. جاءت بسرعة وبصمت، ثم بكت بعد ذلك من الخجل والغضب.

أما ثور فكان يراقب من مسافة أبعد.

كل ليلة كانت عيناه القاتمتان تشتعلان أكثر. ذراعاه الضخمتان تتحركان في الظلام كأفاعي غاضبة، وأحياناً كان يطلق همسات منخفضة حادة تشبه التحذير. نورا كانت تتجاهله تماماً حين يكون يوسف معها، وهذا ما زاد من غضبه الصامت.

في الليلة السابعة بعد الاتحاد الأول، أخذ يوسف نورا تحت شجرة الحور الكبيرة. أوقفها وظهرها إلى الجذع، ورفع إحدى ساقيها، ودخلها من الأمام بقوة. ذراعاها التفتا حول الجذع خلفها لتثبّت نفسها، وهو يندفع داخلها بعمق وسرعة متزايدة. الرحيق كان يسيل بغزارة على ساقيهما، ورائحة الجنس النباتي تملأ الهواء حتى كادت ليلى تشمها من غرفتها. ذروا معاً هذه المرة، صرخته البشرية اختلطت بهمسة نورا الطويلة الحادة، وارتجف الجذع نفسه تحت وطأة اتحاديهما.

بعدها استلقيا متعانقين على العشب الرطب. كانت نورا تمسح وجهه بذراعيها وتهمس له صوراً جديدة: كوكب أخضر بعيد، سماء بلا شمس صفراء، كائنات مثلها تتعانق تحت ضوء النجوم لآلاف السنين. قبلها يوسف على جبينها وهمس:

«لا أريد أن ينتهي هذا... أبداً».

لكن في الظلام، خلف الأشجار، كان ثور يقف كتمثال غاضب، وعيناه تPromise بشيء لم يكن أحد في الحديقة مستعداً له بعد.

الفصل الثامن

الرجل الغيور

لم يعد ثور يكتفي بالمراقبة من الظل.

في الليلة الثامنة بعد الاتحاد الأول، بينما كان يوسف ونورا متعانقين على العشب تحت شجرة الحور، اقترب الرجل النباتي فجأة بخطوات ثقيلة متثاقلة. كان طوله يزيد قليلاً عن طول يوسف، وجسده أسمك وأكثر كثافة، أخضر قاتم كلون الغابات العميقة في الليل. شعره القصير الكثيف يقف كأشواك ناعمة، وعيناه الخضراوان القاتمتان تشتعلان بغيرة واضحة لا تخطئها عين.

همس صوتاً حاداً قوياً، صوتاً يشبه تكسر الأغصان تحت العاصفة. مدت ذراعاه اللولبيتان الضخمتان نحو يوسف كأنه يريد انتزاعه من حضن نورا. تراجع يوسف بسرعة، لكن نورا نهضت بين الاثنين، وذراعاها الرفيعتان امتدتا أمامها كدرع. همست

له بشيء حاد وواضح، فتجمد ثور لحظة، ثم أصدر صوت غضب مكتوم وتراجع خطوة، لكنه لم يبتعد كثيراً.

منذ تلك الليلة أصبح الحضور ثقيلاً.

كلما اقترب يوسف من نورا، كان ثور يظهر في الخلفية، يراقب، يهمس بأصوات تهديد منخفضة، وأحياناً يمد إحدى ذراعيه ليحاول الإمساك بيوسف من كتفه أو ذراعه. في إحدى المرات نجح في الإمساك به، وضغط بقوة جعلت يوسف يصرخ من الألم.
تدخّلت نورا فوراً، لفّت ذراعيها حول ذراع ثور وسحبته بعيداً، وهمست له بكلمات بدت كالأمر والوعيد معاً. أطلق ثور همسة غاضبة وانسحب، لكن عينيه وعدتا بالانتقام.

كان يوسف يشعر بالخطر يتزايد كل يوم، لكنه لم يستطع الابتعاد عن نورا. كانت لياليه معها هي كل ما تبقى له من معنى. أما نورا فكانت تبدو حزينة وممزقة؛ تحب يوسف بوضوح، لكنها مرتبطة بجذور مشتركة مع ثور، بشيء أقدم من الحب البشري.

وفي الظل كانت ليلى تتغير.

بعد أن رأت غيرة ثور وعنفه، بدأت تنظر إليه نظرة مختلفة. لم تعد تراه مجرد كائن مخيف يهدد أخاها. كانت ترى في عينيه القاتمتين وحدة تشبه وحدتها هي، وغضباً مكبوتاً، وجسداً قوياً خشناً يختلف تماماً عن نعومة نورا. في إحدى الليالي، بينما كان يوسف ونورا منشغلين ببعضهما بعيداً تحت الأشجار، اقتربت ليلى بخطوات حذرة من المكان الذي يقف فيه ثور.

توقف هو عن الحركة. نظر إليها طويلاً بعينيه الخضراوين الداكنتين. لم يهمس هذه المرة، فقط أمال رأسه قليلاً كأنه يدرسها. مدت ليلى يدها بتردد لمست الذراع اللولبية السميكة. كانت خشنة قليلاً مقارنة بذراع نورا، لكنها دافئة وقوية، وأفرزت رحيقاً أثقل رائحة وأكثر حدة. شعر ثور باللمسة، فارتعش جسده كله، ومدّ ذراعه الأخرى ببطء ولطف غير متوقع، لمس شعرها الأسود ثم خدها.

همست ليلى بصوت مرتجف:

«أنت... وحيد مثلي، أليس كذلك؟».

لم يرد بالكلمات، لكنه لم يسحب يده. ظلا هكذا لحظات طويلة في الظلام، هو يلمس وجهها وشعرها بأصابعه اللولبية الثقيلة، وهي تشعر بحرارة غريبة تسري من مكان لمسته إلى كل جسدها. من بعيد كانت أصوات يوسف ونورا تتصاعد في نشوتهما المعتادة، لكن ليلى لم تعد تسمعها بوضوح. كان كل انتباهها مركزاً على هذا الكائن الأخضر القاتم الذي بدأ ينظر إليها الآن نظرة مختلفة... نظرة لا تحتوي على الغيرة فقط، بل على شيء أعمق وأكثر خطورة.

حين عادت إلى غرفتها في تلك الليلة، كانت يدها لا تزال تفوح برائحة رحيقه الحادة، وقلبها يخفق بطريقة لم تعرفها من قبل. أما ثور فقد بقي في مكانه طويلاً بعد رحيلها، ينظر إلى النافذة التي اختفت خلفها، وهمس لأول مرة همسة منخفضة بدت كوعد... أو كتهديد لم يُحدد بعد لمن.

الفصل التاسع

همسات الأخت

منذ تلك اللمسة الأولى في الظلام، لم تعد ليلى تستطيع أن تتجاهل وجود ثور.

كانت تخرج كل ليلة بعد منتصف الليل، حين يكون يوسف ونورا غارقين في عالمهما الخاص تحت الأشجار البعيدة. تتسلل بخطوات حافية على العشب البارد حتى تصل إلى الركن الذي يقف فيه الرجل النباتي وحيداً. في البداية كان يراقبها بصمت فقط، عيناه القاتمتان تتابعان حركتها كأنها فريسة أو شيء ثمين لم يقرر بعد ما يفعله به. لكنها لم تتراجع.

في الليلة الثالثة بعد لمستها الأولى، جلست أمامه على العشب، ورفعت وجهها إليه، وهمست:

«علّمني... كيف أفهمك».

نظر إليها طويلاً، ثم مدّ إحدى ذراعيه اللولبيتين السميكين ولمس شفتيها برفق غير متوقع. أفرز رحيقاً خفيفاً حاد الرائحة على فمها. تذوقت ليلى الطعم الغريب — مرّ قليلاً وحلو في الوقت نفسه — فشعرت بدوخة خفيفة وصور مبهمة تتراقص خلف عينيها: ظلام طويل بين النجوم، جذور تبحث عن تربة، غضب دفين، ووحدة أقدم من عمرها.

ابتسمت رغم الخوف، وأعادت اللمسة على ذراعه. منذ تلك الليلة بدأ التعليم الحقيقي.

كان ثور يهمس لها بأصوات مختلفة، كل همسة تحمل صورة أو شعوراً. علّمها كيف تميز بين همسة الغضب وهمسة الجوع وهمسة الاشتياق. كانت تكرر الأصوات بصوتها البشري المرتجف، وهو يصحح لها بلمس شفتيها أو حلقها بأصابعه اللولبية. تدريجياً بدأت تفهم أكثر. عرفت أنه جاء من مكان بارد ومظلم، وأن البذور أُرسلت قبل أن يموت كوكبهم، وأن نورا كانت مخصصة له منذ البداية... لكنها اختارت يوسف.

«هي لا تريدني بعد الآن» همس مرة بصوت خافت حزين، وترجمت ليلى الصورة في عقلها بوضوح مؤلم.

مدّت يدها ووضعتها على صدره الأخضر القاتم. كان صلباً ودافئاً، وينبض بنبض غريب يشبه نبض الأشجار حين يهبّ عليها الريح. قالت بصوت منخفض:

«أنا أيضاً لا يريدني أحد... ليس بهذه الطريقة».

نظر إليها ثور نظرة طويلة مختلفة. لم يعد فيها الغضب فقط، بل شيء أهدأ وأعمق. مدّ ذراعيه الاثنتين ولفّهما حولها ببطء، كأنه يجرب حضناً لم يفعله من قبل مع كائن بشري. شعرت ليلى بجسده الخشن القوي يحيط بها، وبرائحة رحيقه الحادة تملأ أنفها، فاسترخت رغم نفسها وأراحت رأسها على كتفه العريض.

من بعيد كانت أصوات يوسف ونورا تتصاعد في نشوتهما الليلية المعتادة، لكن ليلى لم تعد تتألم كما في السابق. كان حضن ثور يملأ فراغاً لم تكن تعرف أنه موجود داخلها. همس هو فوق رأسها همسة جديدة، صورة واضحة هذه المرة: جسدها هي... شعرها الأسود... عيناها البنيتان... ورغبة مكتومة بدأت تنمو.

رفعت ليلى رأسها ونظرت في عينيه القاتمتين. لم تقل شيئاً، فقط لمست خده بأصابعها البشرية الناعمة. ارتعش ثور تحت لمستها، وذراعه اللولبية انزلقت من ظهرها إلى خصرها، ثم توقفت هناك، كأنها تنتظر إذناً لم يُعطَ بعد.

في تلك الليلة عادت ليلى إلى غرفتها وقلبها يخفق بعنف جديد. وقفت أمام المرآة ونظرت إلى جسدها البشري العادي، وتخيلت الذراعين الخضراوين السميكين حولها من جديد. همست لنفسها بصوت خافت:

«ماذا أفعل بك أيها الكائن الغريب؟».

وفي الحديقة بقي ثور واقفاً مكانه طويلاً بعد رحيلها، ينظر إلى نافذتها المغلقة، وهمساته هذه المرة لم تكن غضبًا... بل شيئاً أقرب إلى الاشتياق.

الفصل العاشر

العناق المحرم

تغيّر كل شيء في الليلة التي تجرأت فيها ليلى على تقبيله.

كانت الحديقة غارقة في ظلام دافئ، والقمر محاقاً صغيراً فوق الصخور. جلسا كعادتهما في الركن البعيد، بعيداً عن الأصوات الرطبة القادمة من جهة يوسف ونورا. علّمها ثور في الليالي السابقة المزيد من الهمسات، حتى أصبحت قادرة على فهم معظم ما يقوله، وعلى الرد بصور بسيطة من عقلها: وحدتها في القاهرة، ملامح أخيها وهو يغرق في نورا، الخوف والفضول اللذين يمزّقان صدرها.

في تلك الليلة لمست ليلى وجهه بكفي يديها. كان خشناً قليلاً تحت أصابعها، أخضر قاتماً لامعاً في الظلام. اقتربت أكثر، حتى أحست بأنفاسه الباردة الغريبة على شفتيها، ثم قبلته.

كان الفم مختلفاً تماماً عن أي فم بشري. بارداً في البداية، ثم دافئاً، واللسان الرفيع الطويل التف حول لسانها ببطء كأنه يتذوقها لأول مرة. أفرز رحيقاً حاداً حلواً مملوءاً بصور واضحة: رغبة... دهشة... وخوف من أن تهرب. لم تهرب. شدت رأسه إليها أكثر وعمّقت القبلة، بينما ذراعاه اللولبيتان السميكتان التفتا حول ظهرها وخصرها بقوة متزايدة.

حين افترقا كان كلاهما يتنفس بصعوبة. همس ثور صوتاً منخفضاً ترجمتْه ليلى فوراً:

«أنتِ... لستِ مثلها. أنتِ تختارينني».

ابتسمت ابتسامة مرتجفة وقالت بصوت خافت:

«نعم... أختارك».

منذ تلك الليلة أصبح العناق طقساً يومياً.

كل مساء كانت تأتي إليه بعد أن يغرق يوسف ونورا في عالمهما. يجلسان متقابلين أولاً، ثم يقترب، تلفه ذراعاه حولها كأغصان حية، ويقبّلان طويلاً. بدأت يداه اللولبيتان تتجولان أكثر: تلامسان شعرها الأسود، تنزلان إلى عنقها وكتفيها، تمرّان ببطء على ثدييها فوق الثوب الخفيف، فترتعش هي وتضغط جسدها عليه. كان يشعر بتصلب حلمتيها تحت القماش، فيهمس بصوت خشن راضٍ، ويزيد الضغط.

في إحدى الليالي أخرج ثدييها من فتحة الثوب. نظر إليهما طويلاً بعينيه القاتمتين، ثم لمسهما بأصابعه اللولبية الخشنة. كان الرحيق الذي يفرزه على بشرتها يجعلها ترتجف من اللذة. انحنى ووضع فمه على إحدى الحلمات، ولعقها بلسانه الطويل البارد. شهقت ليلى وكتمت صرخة، وأمسكت بشعره الأخضر الكثيف بقوة. استمر يلعق ويمصّ حتى ابتلت ملابسها الداخلية تماماً، وهي تفرك جسدها بجسده الخشن الصلب دون أن تدرك ما تفعل.

من بعيد كانت أصوات يوسف ونورا أعلى هذه الليلة. شهقات متكررة، همسات نورا الحادة، وصوت جسد يوسف وهو يندفع داخلها بقوة. سمعت ليلى كل شيء، لكنها لم تعد تغار كما في السابق. كانت مشغولة بذراعَي ثور اللتين انزلتا الآن إلى فخذيها، ترفعان ثوبها ببطء، وتلامسان بشرتها العارية تحت القماش.

توقف فجأة. رفع رأسه ونظر في عينيها. همس سؤالاً واضحاً هذه المرة:

«هل تريدين... أكثر؟».

ليلى كانت تتنفس بسرعة، شفتاها مبللتان برحيقه، وثدياها عاريان يلمعان في الظلام. نظرت إلى عينيه القاتمتين، ثم إلى جسدها الذي كان يرتجف بين ذراعيه، وهمست بصوت مبحوح:

«نعم... لكن ببطء. أنا... لم أفعل هذا من قبل».

ارتعش جسد ثور كله عند سماعها. احتضنها بقوة أكبر، ودفن وجهه في عنقها، وهمس همسة طويلة بدت كوعد وانتظار معاً. لم يتجاوز الحد تلك الليلة. اكتفى بلمسها وتقبيلها وجعلها تصل إلى ذروة مرتجفة وهو يفرك فخذه الصلب بين ساقيها فوق

الملابس. بعدها جلسا متعانقين طويلاً، هي تسمع دقات قلبه الغريبة، وهو يمسح شعرها بذراعه اللولبية كأنه يطمئنها أنه لن يؤذيها.

في الغرفة البعيدة كان يوسف ينام أخيراً بين ذراعَي نورا، جاهلاً تماماً أن أخته في الركن الآخر من الحديقة قد بدأت تقطع المسافة نفسها التي قطعها هو... نحو حب أكثر استحالة، وأكثر خطراً.

الفصل الحادي عشر

فض البكارة

كانت الليلة التالية أكثر ظلمة ودفئاً. لم يكن هناك قمر، فقط نجوم بعيدة تتلألأ فوق هضبة المقطم كأنها تراقب ما سيحدث.

جاءت ليلى إلى ثور مرتجفة. لم تتكلم كثيراً. وقفت أمامه، وخلعت الثوب الخفيف بنفسها، ثم الملابس الداخلية، حتى وقفت عارية تماماً تحت عينيه القاتمتين. نظر إلى جسدها البشري طويلاً: بشرة بيضاء ناعمة، ثديان ممتلئان حلمتاهما ورديتان ومتصلبتان، بطن مسطح، وشعر أسود كثيف بين فخذيها. همس صوتاً خشناً مملوءاً بالدهشة والرغبة، ثم مدّ ذراعيه اللولبيتين السميكين ورفعها عن الأرض كأنها لا تزن شيئاً.

أضجعها على العشب الطري تحت شجرة الجميز القديمة. انحنى فوقها، وبدأ يلعق جسدها كله بلسانه الطويل البارد: من عنقها إلى ثدييها، حيث مصّ الحلمات حتى تأكدت ليلى أنها ستصرخ، ثم نزل إلى بطنها، ففخذيها. حين وصل إلى شعرها الأسود، فتح فخذيها بذراعيه بقوة ناعمة، ولعق شفتيها البشريتين الرطبتين ببطء شديد. كانت تفرز سوائلها بوفرة من الخوف واللذة المختلطين، وهو يبتلعها كأنه يروي عطشاً قديماً.

بعدها رفع رأسه ونظر في عينيها. همس سؤالاً واضحاً:

«الآن؟».

هزّت ليلى رأسها وهي تتنفس بصعوبة، همست:

«الآن... ببطء».

انحنى ثور أكثر. رأت ليلى قضيبه النباتي لأول مرة بوضوح: أخضر قاتم، سميك وطويل أكثر من أي قضيب بشري رأته في الصور أو تخيلته، سطحه مغطى بنتوءات ناعمة صغيرة تتحرك قليلاً، ومن رأسه يفرز رحيقاً لزجاً كثيفاً. وضعه بين شفتي فرجها أولاً، وفرك به ببطء حتى غطّاها بالسائل الأخضر الشفاف. ثم بدأ يدخل.

الألم كان حاداً وفجائياً.

شعرت ليلى كأن شيئاً يمزّقها من الداخل. صرخت صرخة مكتومة ودفنت أظافرها في ذراعيه السميكين. توقف ثور فوراً، همس همسات مهدئة، وذراعه الواحدة تمسح شعرها بينما الأخرى تثبت وركها. انتظر حتى هدأ تنفسها قليلاً، ثم دفع أعمق ببطء شديد. شعرت بالدم يسيل حاراً بين فخذيها، يختلط بالرحيق الأخضر اللزج، ويشكل سائلاً دافئاً غريباً يسيل على العشب.

حين دخل كاملاً أخيراً، شهق الاثنان معاً. كان داخلها ضيقاً جداً يحترق، لكنه كان ممتلئاً به بطريقة لم تتخيلها. النتوءات على قضيبه تتحرك وتضغط على جدرانها الداخلية، والرحيق الذي يفرزه بدأ يخدر الألم ويحوله إلى لذة غريبة متزايدة. بدأ يتحرك. بطيء في البداية، عميق، كل دفعة تخرج مزيداً من الدم المختلط بالسوائل الخضراء.

ليلى كانت تبكي وتتنهد في الوقت نفسه. الألم لا يزال موجوداً، لكنه يمتزج الآن بموجات من اللذة الحادة التي تجعلها ترفع وركيها نحوه رغم نفسها. زاد ثور سرعته تدريجياً. ذراعاه اللولبيتان لفّتا حول فخذيها ورفعتهما، فدخل أعمق مما ظنت ممكناً. بدأت تصرخ بصوت مبحوح مع كل دفعة، وهو يهمس فوقها بأصوات خشنة مملوءة باللذة والتملك.

الذروة جاءت عنيفة ومفاجئة.

ارتجف جسد ليلى كله، وتشنجت حول قضيبه بقوة، صرخت اسمه — أو ما ظنت أنه اسمه — بينما موجات اللذة تمزقها من الداخل. في اللحظة نفسها أفرغ ثور داخلها. شعرت بدفقات ساخنة كثيفة تملأها، رحيق أكثر لزوجة وحرارة من أي شيء سبق، يسيل منها بغزارة مع بقايا دم بكارتها. استمر يندفع داخلها حتى بعد أن انتهى، كأنه يريد أن يزرع شيئاً أعمق من السائل.

بعدها انهار فوقها، لكنه لم يخرج منها فوراً. بقي داخلها وهي ترتجف تحت، تتنهد، والدموع تختلط بالعرق على وجهها. مسح وجهها بذراعه اللولبية برفق غريب، وهمس همسة طويلة ترجمتها بوضوح:

«أنتِ الآن... لي».

ليلى لم ترد. فقط لفّت ذراعيها البشريتين حول عنقه الخشن، وأراحت رأسها على صدره الذي ينبض بذلك النبض النباتي الغريب، وهي تشعر بالسائلين — دمها ورحيقه — يسيلان ببطء بين فخذيها على العشب.

من بعيد جداً، كانت أصوات يوسف ونورا لا تزال تتصاعد في نشوة أخرى، جاهلين تماماً أن الحديقة قد شهدت هذه الليلة فصّاً آخر... وأن بذرة مأساة جديدة قد زُرعت في اللحظة نفسها التي اختلط فيها الدم الأحمر بالرحيق الأخضر.

الفصل الثاني عشر

ليالٍ نباتية

منذ ليلة فضّ البكارة لم تعد ليلى تعود إلى غرفتها قبل الفجر.

كل ليلة كانت تذهب إلى ثور كمن يذهب إلى مصيره. الجسد الذي كان يخشى الألم أصبح يطلب المزيد، والرجل النباتي الذي كان غيوراً صامتاً أصبح نهماً ومتوحشاً في حبه الجديد. كانت الليالي تتحول إلى طقوس طويلة من اللحم والرحيق والهمسات الخشنة.

في الليلة الثانية بعد الفضّ أخذها من الخلف.

أوقفها على أربع فوق العشب، ورفع وركيها بذراعيه القويتين، ودخلها دفعة واحدة حتى ارتطم بطنها بفخذيه. صرخت من العمق المفاجئ، لكنه لم يتوقف. بدأ يندفع بقوة متزايدة، كل دفعة تخرج صوتاً رطباً من اختلاط رحيقه بسوائلها. ذراعاه اللولبيتان لفّتا حول خصرها وثدييها، تضيّقان عليها وتلعبان بحلماتها حتى بكت من اللذة. ذروت مرتين متتاليتين وهو لا يزال يندفع، وفي الثالثة أفرغ داخلها بكمية كبيرة حتى سال الرحيق الكثيف على ساقيها وبطنها.

في ليلة أخرى اكتشف الجنس الفموي المتبادل.

أضجعها على ظهرها وفتح فخذيها تماماً بذراعيه، ثم دفن وجهه بين ساقيها. لسانه الطويل البارد دخلها عميقاً، يلتف ويمتص ويلعق حتى صرخت ورفعت وركيها عن العشب. بعد أن جعلها تصل ثلاث مرات متتالية، جذبها لتجلس فوق وجهه، بينما هو يرفعها قليلاً ليصل قضيبه إلى فمها. أخذته بين شفتيها بصعوبة بسبب سمكه، لكنه ساعدها بيده اللولبية على رأسها، يدفعها برفق ثم بقوة حتى اختنقَت بالرحيق الذي أفرغه في حلقها. ابتلعَت ما استطاعت، والباقي سال على ذقنها وثدييها.

كان يستخدم قوته النباتية بلا رحمة أحياناً.

يرفعها بالكامل في الهواء ويثبّتها بذراعيه بينما يدخلها واقفة، أو يثبتها ضد جذع الشجرة ويرفع إحدى ساقيها عالياً حتى تكاد تنشق، ويندفع فيها بعمق يجعلها ترى نجوماً خلف جفنيها. في كل مرة كان الرحيق يسيل بغزارة، رائحته الحادة تملأ الحديقة، وتختلط برائحة جنس يوسف ونورا القادمة من الجهة الأخرى.

أما يوسف ونورا فكانا لا يزالان في عالمهما المنفصل.

كل ليلة يسمعان أصداء بعيدة لصرخات ليلى وهمسات ثور الخشنة، لكنهما لا يسألان. كان يوسف غارقاً تماماً في جسد نورا، في خيوطها الداخلية التي تمتصه، في ذرواتها المتعددة التي تجعل أوراقها ترتعش. وكانت نورا تبدو أحياناً حزينة حين تسمع صوت ثور، لكنها تشدّ يوسف إليها أكثر كأنها تريد أن تنسى ما كان يجب أن يكون.

في إحدى الليالي الأكثر جنوناً، أخذ ثور ليلى تحت المطر الخفيف الذي هطل فجأة على المقطم. كانا عاريين تماماً، الماء يسيل على جسده الأخضر القاتم وجسدها الأبيض، وهو يرفعها ويُنزلها على قضيبه مراراً وهو واقف. صرخت باسمه مرات عديدة حتى بُحّ صوتها، وهو يهمس في أذنها بصور واضحة: «أنتِ لي... جذورنا اختلطت... لن أتركك».

بعد أن أفرغ داخلها للمرة الثالثة تلك الليلة، جلسا تحت الشجرة والمطر يغسلهما. ليلى كانت ترتجف من الإرهاق واللذة، رأسها على صدره، ويده اللولبية تمسح شعرها المبلل. همست بصوت مبحوح:

«ماذا حدث لنا؟».

ردّ ثور بهمسة منخفضة ترجمتها بوضوح مؤلم وجميل في آن واحد:

«حدث الحب المستحيل... وأنتِ اخترته».

من النافذة البعيدة كان يوسف يقف لحظة ينظر إلى الظلام، يسمع الأصوات المختلطة في الحديقة، ثم يعود إلى نورا دون أن يسأل. كانت الحديقة كلها قد أصبحت فراشاً كبيراً لحبّين مستحيلين ينموان جنباً إلى جنب... قبل أن تأتي البذور الجديدة وتقلبهما رأساً على عقب.

الفصل الثالث عشر

العلبة الثانية

جاء الاكتشاف في ليلة لم يكن يوسف يبحث فيها عن شيء.

كان مستلقياً بجانب نورا على العشب، جسده لا يزال يرتعش من الذروة الأخيرة، ورأسه على صدرها الأخضر الناعم. كانت ذراعاها اللولبيتان تلفانه برفق، وهمساتها هذه المرة مختلفة. لم تكن همسات لذة أو حب عادي. كانت صوراً أوضح وأكثر إلحاحاً: نيزك يسقط، حفرة عميقة، شيء أسود لامع مدفون تحت الصخور، وبذرتان أخريان تنامان في الظلام منذ سقوطهما.

رفع يوسف رأسه فجأة ونظر في عينيها اللامعتين.

«هناك المزيد؟» همس.

همست هي رداً إيجابياً واضحاً، ثم لمست جبهته بأصابعها. سرت صورة حادة في عقله: الجهة الشرقية من الحفرة الأصلية، تحت كتلة صخرية كبيرة لم يحركها أحد، عمق يزيد عن متر. شعور بالخطر أيضاً... وشيء يشبه التحذير.

في الصباح التالي، بينما كانت ليلى لا تزال نائمة في غرفتها (أو ربما في حضن ثور)، خرج يوسف وحده إلى مكان سقوط النيزك. الحفرة كانت لا تزال واضحة، والصخور السوداء الحادة متناثرة كما تركها في اليوم الأول. بحث ساعة كاملة، يزيح الحجارة بيديه العاريتين حتى أدميتا. أخيراً، تحت صخرة كبيرة مائلة، لمح لمعاناً أسود مختلفاً.

حفر أكثر. أخرج علبة ثانية، مشابهة تماماً للأولى، لكن أصغر قليلاً وأكثر اسوداداً. كانت المادة نفسها: نسيج مدبوغ مقاوم. حملها بسرعة إلى الفيلا، وأغلق باب المرسم خلفه. صبّ عليها الماء كما فعل مع الأولى. رقّت المادة ببطء، وانفتحت.

داخلها بذرتان أخريان.

كانتا أغمق لوناً من البذرتين الأوليين، وأكثر طولاً بقليل، وسطحهما خشن كأنه محروق. حملهما في راحة يده ونظر إليهما طويلاً. شعر بشيء غريب هذه المرة: ليس الفضول فقط، بل قلق غامض. تذكّر همسة نورا التحذيرية.

قرر أن يزرعهما رغم ذلك.

اختار ركناً آخر في الحديقة، أبعد من المكان الذي ينمو فيه نورا وثور، خلف صف من شجيرات الجميز الكثيفة حيث لا يراه أحد بسهولة. حفر مكانين، وجعل المسافة بينهما ثلاثة أمتار كما في المرة الأولى. غرس البذرتين، وروّاهما، وغطاهما بالتراب بعناية. وقف ينظر إلى البقعتين وقتاً طويلاً، ثم همس لنفسه:

«ماذا جلبتِ لي هذه المرة أيتها السماء؟».

في الليالي التالية راقب المكان سراً. لم يخبر نورا بالتفاصيل، ولا ليلى، ولا أحداً. كان يخرج في الفجر قبل أن يستيقظ الآخرون، يفحص التربة، يرويها، ثم يعود كأن شيئاً لم يكن. بعد عشرة أيام ظهرت البراعم. قضيبان أخضران قاتمان هذه المرة، أسمك وأصلب من براعم نورا وثور في بدايتهما.

نمت بسرعة مقلقة.

بعد أسبوعين كانا قد ارتفعا نصف متر، مغطيين بأوراق كاسية داكنة كاللون الحبري. كان أحدهما أسمك وأكثر خشونة، والآخر أنحف قليلاً لكنه قاتم أيضاً. شعر يوسف كلما اقترب منهما ببرودة غريبة تنبعث من التربة، وبشيء يشبه الرفض أو العداء الكامن.

في إحدى الليالي، بينما كان يقف أمامهما يحمل المصباح، أحس فجأة بوجود خلفه. التفت فرأى نورا تقف في الظل، عيناها الخضراوان الواسعتان تنظران إلى البراعم الجديدة بحزن وخوف واضحين. مدت ذراعها ولمست كتفه، وهمست صورة واضحة ومخيفة:

«هذان... ليسا مثلنا. احذر».

يوسف لم يرد. فقط أمسك بيدها اللولبية وقبّل أصابعها، ثم نظر مرة أخرى إلى العمودين القاتمين اللذين ينموان في صمت كتهديد لم يُفصح عنه بعد.

في الركن الآخر من الحديقة كانت ليلى في حضن ثور، غارقة في نشوة جسدية أخرى، جاهلة تماماً أن بذوراً جديدة قد زُرعت، وأن شيئاً أسود وأشد غيرة بدأ يتغذى على تربة حديقتهم... استعداداً لقلب كل الحب المستحيل الذي بنوه رأساً على عقب.

الفصل الرابع عشر

النمو الجديد

نمت البذرتان الجديدتان أسرع مما توقع يوسف، وأظلم مما خشي.

بعد شهر كامل كان العمودان القاتمان قد ارتفعا إلى ارتفاع يقارب ارتفاع نورا وثور. الأوراق الكاسية التي تغطيهما كانت أسمك وأكثر خشونة، لونها أخضر حبري يميل إلى السواد في بعض المواضع. لم يكن هناك ذلك اللمعان الذهبي الذي يميز نورا، ولا حتى القتامة الحية التي في جسد ثور. كان فيهما شيء بارد وجاف، كأن التربة التي غُرستا فيها قد امتصت دفئاً أقل.

في صباح مبكر جداً، قبل أن يستيقظ أحد، خرج يوسف وحده ليراقب. وجد الأوراق قد بدأت تنفرج.

من العمود الأسمك برز رأس خشن، شعره قصير كثيف جداً وأقرب إلى السواد منه إلى الأخضر، وملامحه حادة كأنها نُحتت بسكين. انفتحت العينان فوراً: خضراوان قاتمتان بلا لمعان، فيهما نظرة حادة فاحصة مملوءة بشيء يشبه الازدراء. أما العمود الآخر فانفرجت أوراقه عن رأس أنعم قليلاً، شعره أطول وأقل كثافة، ووجه امرأة نباتية جديدة. عيناها خضراوان أيضاً لكن فيهما حزن واضح وهدوء لم يوجد في عيني رفيقها.

سمّاهما يوسف في سرّه منذ اللحظة الأولى: **سُم** و**ندى**.

سُم لأنه أحس بالسمّ الكامن في نظرته، وندى لأن وجهها ذكّره بندى الصباح الحزين على أوراق الشجر.

في الليلة التالية تحررا تماماً من الأوراق الكاسية. وقف سُم أولاً، جسده أطول وأضخم من ثور، عضلاته النباتية بارزة وخشنة، وذراعاه اللولبيتان أسمك وأقوى. نظر حوله كمن يقيس المكان ويقيس الكائنات فيه. حين وقعت عيناه على نورا أولاً، ثم على ثور، ثم على يوسف، امتلأت نظرته بغيرة فورية سوداء لم يحاول إخفاءها.

ندى نهضت ببطء أكثر. جسدها أنحف من نورا، لونها أغمق، وحركاتها أكثر حذراً. نظرت إلى ثور نظرة طويلة صامتة، ثم أمالت رأسها كأنها تتعرف على شيء مألوف ومؤلم في الوقت نفسه.

بدأت التوترات في الليلة نفسها.

اقترب سُم من نورا أولاً. مدّ ذراعه اللولبية نحوها كأنه يريد لمسها أو امتلاكها. تراجعت نورا فوراً واختبأت خلف يوسف. أصدر سُم همسة حادة منخفضة بدت كالإهانة أو التهديد. interveneى ثور فوراً. وقف بين الاثنين، وذراعاه مرفوعتان، وهمس بصوت غاضب قوي لم يسمعه يوسف بهذه الحدة من قبل. تحدّق الاثنان — سُم وثور — طويلاً كديكين يستعدان للقتال، قبل أن تتدخل ندى. لمست ذراع سُم برفق وهمست له شيئاً جعله يتراجع خطوة، لكنه لم يُسقط عينيه عن نورا ولا عن ثور.

ليلى التي كانت تراقب من بعيد شعرت بقشعريرة باردة. اقتربت من ثور بعد أن هدأ قليلاً وهمست:

«هذا الجديد... خطر».

ردّ ثور بهمسة واحدة واضحة ترجمتها فوراً:

«نعم. وهو يكرهني أصلاً».

في الأيام التالية أصبح الجو في الحديقة ثقيلاً ك الهواء قبل العاصفة. سُم كان يراقب الجميع في صمت معظم الوقت، خاصة ثور وندى. كلما رآها تنظر إلى ثور أو تقترب منه قليلاً، كانت عيناه تشتعلان أكثر. أما ندى فكانت تبدو منقسمة: تقترب أحياناً من ثور بهمسات هادئة حزينة، ثم تعود مسرعة إلى جانب سُم كأنها مجبرة على ذلك بجذور لا تراها العيون.

يوسف حاول أن يتعامل مع الأمر بهدوء. روى النباتات الجديدة، حاول التواصل مع ندى بهمسات بسيطة، لكنها كانت ترد بحذر. أما سُم فكان يرفض أي اقتراب. في إحدى المرات مدّ يوسف يده نحوه، فردّ سُم بذراع لولبية سريعة كادت تكسر له ذراعه لو لم يتراجع في الوقت المناسب.

نورا كانت الأكثر اضطراباً. همست ليوسف ذات ليلة وهي ترتجف:

«هما من البذور الداكنة... البذور التي تُرسل حين يموت الكوكب في غضب. سُم لا يعرف إلا الغيرة والتملك. وندى... ندى كانت مخصصة لثور في دورة سابقة، لكن القدر فرّقهما».

يوسف احتضنها بقوة، لكنه شعر للمرة الأولى أن الحديقة التي كانت فراشاً لحبين مستحيلين قد بدأت تتحول إلى ساحة لمعركة لم تُعلن بعد.

وفي الظلام، كان سُم يقف وحيداً ساعات طويلة، ينظر إلى ثور وليلى تارة، وإلى نورا ويوسف تارة أخرى، وهمساته المنخفضة تشبه اللعنات التي لم تجد أذناً بشرية تترجمها بعد... لكنها كانت تنمو، تماماً كما نمت جذوره في تربة المقطم.

الفصل الخامس عشر

الغيرة السوداء

لم يعد سُم يختبئ في الظل.

منذ الليلة التي تحرّر فيها تماماً، أصبح حضوره يملأ الحديقة كثقل أسود لا يُحتمل. كان يقف ساعات طويلة في المكان نفسه، ذراعاه اللولبيتان متقاطعان على صدره الخشن، وعيناه القاتمتان تتابعان كل حركة. خاصة حركة ندى... وحركة ثور.

ندى كانت تتجنبه كلما استطاعت. في الصباح كانت تبتعد نحو جهة نورا ويوسف، وفي الليل كانت تنظر أحياناً طويلة إلى ثور وهو يحتضن ليلى. كانت تلك النظرات كافية لتشعل شيئاً مظلماً في صدر سُم. يصدر همسات منخفضة حادة تشبه صفير الرياح بين الصخور، همسات لم يترجمها أحد بعد، لكنها كانت مملوءة بالكره والتملك والجوع إلى الانتقام.

في إحدى الليالي اقترب من ندى فجأة بينما كانت واقفة وحدها تحت شجرة الحور. أمسك بذراعها اللولبية بقوة وجعلها تنظر إليه. همس صوراً واضحة وعنيفة: هو مالكها، هي له منذ البذرة، وثور لصّ سرق ما ليس له مرتين — مرة على الكوكب القديم ومرة هنا. ندى حاولت الانسحاب، لكن قبضته كانت حديدية. اقترب يوسف حين سمع الحركة، فتدخل ثور قبله. وقف الاثنان وجهاً لوجه، المسافة بينهما لا تزيد عن ذراع، والهمسات الغاضبة تتطاير كالشرر.

كاد القتال أن ينشب لولا أن نورا interven ت. مدت ذراعيها بين الاثنين وهمست بكلمات بدت كالأمر القديم الذي لا يُعصى. تراجع سُم ببطء، لكنه لم يُسقط عينيه عن ثور. قبل أن يبتعد، نظر إلى ليلى التي كانت تقف خلف ثور، وابتسم ابتسامة نباتية باردة بدت أكثر رعباً من أي تهديد.

منذ تلك الليلة أصبح الجو في الحديقة خانقاً.

سُم بدأ يراقب علاقة ندى بثور بعينين لا تنامان. كلما رآها تهمس لثور أو تمد ذراعها نحوه ولو للحظة، كان يقترب كظل أسود ويفرض حضوره. في إحدى المرات وجد ندى جالسة بالقرب من ثور وليلى بعد منتصف الليل. لم يتكلم. فقط وقف فوقهم، ونظر إلى ندى نظرة جعلتها ترتجف وتنسحب فوراً إلى الركن البعيد. بعد رحيلها، نظر إلى ثور وهمس همسة واحدة ترجمتها ليلى بوضوح مرعب:

«سأأخذ كل ما تحبه... واحداً تلو الآخر».

ليلى شعرت بدمها يتجمد. أمسكت بذراع ثور بقوة وهمست له:

«هو جاد... أشعر بذلك».

ثور لم يرد فوراً. فقط شدّها إليه أكثر، وهمس رداً خشناً:

«أنا أعرفه منذ الجذور الأولى. الغيرة في دمه الأسود... ولن يتوقف».

أما يوسف فكان يحاول احتواء الأمر. تحدث إلى سُم مرة محاولاً الهدوء، لكن الرد جاء ذراعاً لولبية سريعة كادت تلتف حول عنقه لو لم تتدخل نورا في اللحظة الأخيرة.
همست له نورا بعد ذلك وهي ترتجف:

«البذور الداكنة تحمل ذاكرة الموت. سُم رأى كوكبنا يموت في الحقد والغيرة، فصار هو نفسه حقداً يمشي. ندى تعرف ذلك... ولهذا تخافه وتحنّ إلى ثور في الوقت نفسه».

في الليلة التالية رأى يوسف شيئاً جعله يفقد النوم.

كان سُم يقف أمام ندى في الركن الأكثر ظلمة. يمسك بذقنها بقوة ويجبرها على النظر إليه، بينما ذراعه الأخرى تتحرك على جسدها بطريقة تمتلكية خشنة. ندى لم تقاوم ظاهرياً، لكن عينيها كانتا مملوءتين بدموع خضراء صامتة. حين انتهى منها وتركها، سقطت على العشب مرتجفة، ونظر هو مباشرة إلى الجهة التي يقف فيها ثور وليلى... وابتسم تلك الابتسامة الباردة مرة أخرى.

الغيرة السوداء كانت قد نضجت تماماً.

وفي تربة الحديقة، تحت أقدامهم جميعاً، كانت الجذور الجديدة لسُم تمتد أعمق فأعمق، تبحث عن شيء تمسكه... أو تخنقه حين يحين الوقت.

الفصل السادس عشر

الليلة الدامية

جاءت الليلة بلا نذير واضح، لكن الهواء كان ثقيلاً منذ الغروب، كأن الحديقة كلها تحبس أنفاسها.

كان يوسف جالساً مع نورا تحت شجرة الحور، ذراعاها اللولبيتان حوله، حين سمع الصرخة الأولى. صرخة ليلى. ليست صرخة لذة هذه المرة، بل صرخة رعب حادة قطعت الظلام كسكين.

نهض بسرعة وركض نحو الركن البعيد. نورا خلفه. ثور كان قد سبقهما. المشهد الذي واجههم جعل الزمن يتوقف.

سُم كان يمسك ليلى من عنقها بذراع لولبية واحدة، ويرفعها عن الأرض كأنها دمية. وجهها أحمر مزرقّ، عيناها جاحظتان من الاختناق، ويداها تضربان ذراعه بلا فائدة. ذراعه الأخرى كانت ملفوفة حول خصرها تضغط بقوة وحشية حتى سُمع صوت تكسر

خافت. رآهم سُم يقتربون، فابتسم تلك الابتسامة الباردة، ثم شدّ ذراعيه فجأة بقوة هائلة.

سمعت ليلى صوت عظامها وهي تنكسر. خرج دم أحمر قاني من فمها، واختلط بالرحيق الأسود الذي بدأ يفرزه سُم من أصابعه كأنه يسمّمها من الخارج. حاول ثور الهجوم، لكن سُم رمى جسد ليلى نحو الأرض بقوة، فارتطمت بصخرة بارزة وسكنت حركتها فوراً. بقيت عيناها مفتوحتين، تنظران إلى السماء بلا شيء خلفهما.

صرخ ثور همسة وحشية لم يسمعها أحد من قبل، واندفع نحو سُم. لكن سُم كان جاهزاً. تفاداه وضربه بذراع لولبية في صدره، فطوح به بعيداً بين الأشجار. ثم التفت إلى ندى التي كانت واقفة مشدوهة، يداها على فمها.

«أنتِ أيضاً» همس لها بصوت مترجم في عقولهم جميعاً بوضوح مرعب. «أحببته... دافعتِ عنه بعينيك. الآن دورك».

اندفع نحوها. ندى حاولت الهرب، لكن جذوراً هوائية سوداء انبثقت فجأة من ساقي سُم والتفّت حول كاحليها وأسقطتها. ركع فوقها، وذراعاه تلتفّان حول عنقها وجذعها. بدأت تضغط. ندى تقاوم، تهمس صرخات خافتة، وعيونها الخضراء تتسع من الرعب والألم.

يوسف لم يفكر. التقط أول شيء وقعت عليه يداه: منجلاً قديماً كان يستخدمه في تقليم الأشجار، كان ملقى قرب سور الحديقة. ركض نحو سُم والمنجل مرفوع. صرخ وهو يهوي بالشفرة على الذراع اللولبية التي تخنق ندى. اخترقت الشفرة النسيج النباتي السميك، وسال عصير أسود كثيف كالنفط. زأر سُم من الألم وأفلت ندى، ثم التفت إلى يوسف بعينين محمرتين من الحقد.

اندفع نحوه. يوسف تراجع وضرب مرة أخرى، فقطع جزءاً من الذراع الأخرى. العصارة السوداء تناثرت على وجهه وصدره، حارقة كالحمض. سُم تعثر للحظة، وهذا ما احتاجه ثور. نهض من بين الأشجار وكله جراح خضراء، ورماه بكل ثقله. الاثنان تدحرجا على العشب وهما يهمسان ويضربان.

نورا ركعت بجانب ليلى أولاً. لمست وجهها، همست، ثم رفعت رأسها إلى يوسف وعيناها ممتلئتان بحزن لا يُوصف. هزّت رأسها ببطء. ليلى كانت قد رحلت.

يوسف شعر بشيء ينكسر داخله إلى الأبد. نظر إلى جسد أخته الممدد على العشب، الدم الأحمر يختلط بالعصارة السوداء تحت رأسها، ثم نظر إلى سُم الذي لا يزال يقاتل ثور. رفع المنجل مرة أخرى، وعيناه لم تعدا عيني رسام حالم... بل عيني رجل لم يعد لديه ما يخسره.

الليلة الدامية كانت قد بدأت للتو، والحديقة التي شهدت الحب المستحيل بدأت تشهد الآن ثمنه.

الفصل السابع عشر

الانتقام

لم يعد هناك وقت للكلمات أو الهمسات.

اندفع يوسف نحو الاثنين المتصارعين والمنجل اللامع في يده اليمنى. كان الدم الأحمر لأخته لا يزال دافئاً على العشب خلفه، وصورة عينيها المفتوحتين محفورة في ذهنه كجرح مفتوح. سُم كان قد تمكّن من الإمساك بثور وبدأ يضغط على صدره بذراعيه المتبقيتين، والعصارة السوداء تسيل من الجروح التي أحدثها المنجل سابقاً.

صرخ يوسف صرخة بشرية خالصة وضرب.

الشفرة غاصت في كتف سُم الأيسر بعمق. زأر النباتي زئيراً همسياً حاداً وأفلت ثور، ثم التفت بكل ضخامته نحو يوسف. ذراع لولبية سميكة انقضّت نحوه كأفعى، فتفاداها يوسف بأعجوبة وضرب مرة ثانية. هذه المرة قطع جزءاً كبيراً من الذراع نفسها. سقط الطرف المقطوع على العشب وهو يرتجف ككائن مستقل، والعصارة السوداء تنزف بغزارة كالنفط الحار.

سُم تعثر للخلف، لكن غضبه زاد وحشية. انبثقت من ساقيه جذور هوائية سوداء سريعة كالسياط، التفّت حول كاحل يوسف وأسقطته. في لحظة كان النباتي فوقه، يحاول خنقه بالذراع المتبقية. شعر يوسف بالهواء ينقطع، وبالعصارة السوداء تقطر على وجهه فتحرق جلده. كاد يفقد الوعي لولا أن ثور عاد ورماه عن يوسف بكل ما تبقى له من قوة.

نهض يوسف وهو يسعل دماً. رأى المنجل على بعد مترين. زحف إليه بسرعة، أمسكه، وفي اللحظة التي عاد فيها سُم للهجوم، هوى بالشفرة بكلتا يديه على قاعدة الجذع النباتي، حيث تلتقي الساقان بالأرض.

الصرخة التي أطلقها سُم لم تكن همسة هذه المرة. كانت شيئاً يشبه صرير المعادن وهي تتمزق. الشفرة قطعت الجذور الرئيسية جزئياً، فسالت عصارة سوداء غزيرة كنافورة. تراجع سُم مترنحاً، يحاول الوقوف، لكن يوسف لم يمهله. تقدم وضرب مرة أخرى في المكان نفسه، ثم مرة ثالثة. مع كل ضربة كانت الجذور تتمزق أكثر، والعصارة تتناثر على صدر يوسف ووجهه وذراعيه، حارقة وثقيلة الرائحة كالموت نفسه.

سقط سُم أخيراً على ركبتيه. حاول رفع ذراعه المتبقية، لكن يوسف كان قد جنّ تماماً من الألم والحقد. وضع قدمه على صدر النباتي وطعنه بالمنجل مباشرة في مكان القلب — أو ما يشبه القلب في صدره الأخضر القاتم. غاصت الشفرة حتى المقبض. ارتجف جسد سُم كله رعدة عنيفة، وعيناه القاتمتان اتسعتا من الدهشة والألم، ثم بدأ الضوء فيهما ينطفئ ببطء.

همس صوتاً أخيراً خافتاً، صورة واحدة واضحة وصلت إلى عقولهم جميعاً:

«الغيرة... لا تموت».

ثم استرخى. العصارة السوداء استمرت تسيل منه دقائق طويلة بعد أن سكن، تتشكل بركاً داكنة تحت جسده على العشب. يوسف بقي واقفاً فوقه، المنجل لا يزال مغروساً في صدره، وهو يتنفس بصعوبة، والدماء والعصارة تختلطان على جلده.

ثور زحف نحو جسد ليلى وأحنى رأسه فوقها طويلاً. نورا ركعت بجانب ندى التي كانت لا تزال ترتجف من محاولة الخنق، تهمس لها همسات مهدئة. أما يوسف فسحب المنجل أخيراً، ورماه جانباً، ثم سقط على ركبتيه بجانب أخته. لمس شعرها الأسود الملطخ بالدم والرحيق الأسود، وهمس بصوت مبحوح مكسور:

«انتهى... انتهيتُ منه يا ليلى».

لكن في عيني نورا، وهي تنظر إلى البرك السوداء التي تتشكل تحت جسد سُم، كان هناك خوف لم ينتهِ بعد. كأنها تعرف أن بعض الجذور تبقى حية تحت التربة طويلاً بعد أن يموت ما فوقها.

الليلة انتهت بالدم والعصارة والموت. والحديقة التي كانت مكاناً للحب المستحيل أصبحت الآن قبراً مفتوحاً.

الفصل الثامن عشر

رؤى فيردانيا

بعد ثلاث ليالٍ من الصمت الثقيل، جاءت الرؤى.

كان يوسف جالساً وحده عند قبر ليلى الصغير الذي حفروه خلف شجيرات الجميز. لم يزرع زهرة، فقط وضع حجراً أملس كتب عليه اسمها بيده. نورا جاءت أولاً، جلست بجانبه، ووضعت ذراعها اللولبية على كتفه. ثم جاءت ندى، مترددة، وركعت أمامهما. ثور بقي بعيداً قليلاً، يحرس المكان كأنه لا يزال يتوقع خطراً من الجذور الميتة.

نورا لم تهمس كالمعتاد. لمست جبهة يوسف وجبهة ندى في الوقت نفسه، وفتحت عقليهما على ما كانت تخفيه منذ البداية.

رأوا.

كوكب يدور حول نجم أخضر باهت في طرف مجرة بعيدة. اسمه في عقولهم جاء واضحاً: **فيردانيا**. سماء دائمة الخضرة، لا شمس صفراء حارقة، بل ضوء زمردي ناعم يغمر غابات عملاقة تتنفس وتتكلم. الكائنات هناك لا تولد كما يولد البشر. تبدأ كبذور تُطلق في دورات كونية طويلة، تسقط على التربة الحية، تنمو إلى أعمدة خضراء، ثم تتحرر وتصبح كائنات واعية تمشي وتتكلم وتحب.

رأوا طقوس الاتحاد الضوئي.

ليس جنساً للمتعة فقط، بل طقساً مقدساً. حين يتعانق اثنان ويمتزج رحيقهما، يتبادلان طاقة ضوئية حقيقية، يعيدان شحن الحياة في جذور الكوكب نفسه. كلما زاد الاتحاد، طال عمر الغابات. لكن الغيرة كانت جزءاً من طبيعتهم أيضاً. الموارد الضوئية محدودة، والجذور تتنافس تحت التربة، فمن أحب أكثر من المسموح به أو اختار من لا يخصه، جلب الحقد إلى الدورة كلها.

رأوا النهاية.

النجم الأخضر بدأ يموت ببطء. الضوء ضعف، والغابات ذبلت، والكائنات صارت تتقاتل على آخر قطرات الرحيق. في اللحظة الأخيرة قبل الانهيار، أطلقت الحضارة المحتضرة سفن بذور — نيازك صغيرة محمية — نحو العوالم البعيدة، تحمل آخر ما تبقى من نوعهم. بعضها بذور فاتحة اللون، تحمل ذاكرة الحب والاتحاد. وبعضها بذور داكنة، تحمل ذاكرة الغيرة والموت، لأنها نبتت في الأيام الأخيرة حين كان الحقد يملأ الهواء.

نورا وثور كانا من البذور الفاتحة. سُم وندى من البذور الداكنة. لكن القدر جمعهما على هضبة المقطم، في حديقة رسام بشري وحيد.

الصور استمرت.

رأوا ندى في دورة سابقة على فيردانيا، كانت مخصصة لثور قبل أن تفرّقهم الرياح الكونية. رأوا سُم وهو يراقبها من بعيد حتى على الكوكب المحتضر، غيرته تأكله حياً. رأوا السفينة-النيزك وهي تنطلق، والبذور نائمة في علبها السوداء، مسافرة ملايين السنين حتى سقطت هنا.

حين انتهت الرؤى، كان يوسف يبكي دون صوت. نورا تمسح وجهه بذراعها، وندى تجلس صامتة والدموع الخضراء تسيل على خديها. ثور اقترب أخيراً ووقف خلف ندى، دون أن يلمسها، لكنه لم يبتعد.

همست نورا بصوت واضح هذه المرة، كأنها تتكلم لغة بشرية للمرة الأولى:

«جئنا لننشر الحياة... لكننا جلبنا معنا موتنا أيضاً. الحب عندنا مستحيل لأنه دائماً يحمل جذر الغيرة معه. وأنتم البشر... أنتم أضفتم الدم الأحمر إلى العصارة الخضراء».

يوسف نظر إلى القبر الصغير، ثم إلى ندى التي كانت لا تزال ترتجف من الذكريات، ثم إلى نورا. همس بصوت مبحوح:

«إذن كل ما حدث... كان مكتوباً منذ أن سقط النيزك؟».

نورا هزّت رأسها ببطء:

«لا. المكتوب هو البذور. أما الحب والقتل... فأنتم من اخترتموهما».

في تلك الليلة لم يمارس أحد الاتحاد. جلس الأربعة الباقون حول قبر ليلى في صمت طويل، بينما تحت التربة كانت آخر قطرات العصارة السوداء لسُم تتسرب إلى العمق، والجذور الميتة لا تزال تمسك بشيء من الحقد الذي لم يمت تماماً بعد.

الفصل التاسع عشر

الجذور الأخيرة

مرت أيام ثقيلة كالصخور على هضبة المقطم.

دفنوا ليلى في الصباح التالي للرؤى. حفر يوسف القبر بنفسه تحت شجرة الجميز القديمة، بعيداً عن المكان الذي سالت فيه دماؤها. لفّها نورا وندى بأوراق خضراء واسعة من أجسادهما، كفن نباتي ناعم، ثم أنزلاها برفق. ثور وقف طوال الوقت صامتاً، ذراعاه مكسورتان جزئياً من المعركة، وعيناه القاتمتان لا تبارحان الجسد المغطى. حين امتلأ القبر بالتراب، وضع فوقه الحجر الذي كتب عليه يوسف اسمها، ثم ركع ودفن أصابع يديه اللولبيتين في التربة كأنه يريد أن يزرع جزءاً منه معها.

لم يترك القبر بعد ذلك إلا نادراً.

يوسف حاول أن يعود إلى شيء يشبه الحياة. نظف المرسم للمرة الأولى منذ شهور، فتح النوافذ، وأخرج الألوان التي جفت. لكنه لم يستطع أن يرسم شيئاً أخضر. كلما لمس الفرشاة بلون الزمرد أو الزيتوني، كانت صورة ليلى وعينيها المفتوحتين تعود، أو صورة العصارة السوداء وهي تسيل من صدر سُم. فرسم الكثبان الرملية، والليل، والصخور الصفراء. لوحات قاتمة وباردة، علقها على الجدران كأنها حداد صامت.

ندى بقيت قريبة منه في الأيام الأولى. كانت تجلس في الحديقة ساعات طويلة، تنظر إلى المكان الذي مات فيه سُم، ثم إلى قبر ليلى. في إحدى الليالي اقتربت من يوسف وهو يرسم على عتبة المرسم، وهمست له بهدوء:

«أنا أيضاً فقدتُ دورة كاملة... في فيردانيا، ثم هنا. إذا أردت... أستطيع أن أبقى».

يوسف نظر إليها طويلاً. جسدها أغمق من نورا، عيناها أكثر حزناً، وحركتها أهدى. لم يرفض، ولم يقبل فوراً. فقط أمسك بذراعها اللولبية لحظة، ثم عاد إلى لوحته.

نورا كانت الأكثر هدوءاً وقبولاً للخسارة. قضت الليالي بجانب ثور عند القبر، تهمس له همسات قديمة عن فيردانيا، عن الدورات التي انتهت، عن أن الجذور الميتة يجب أن تُترك لتتحلل. ثور لم يرد كثيراً. في الليلة السابعة بعد الدفن، فعل شيئاً لم يتوقعه أحد. ركع عند قبر ليلى، ودفن ذراعيه وجذعه في التربة تدريجياً، كأنه يختار أن يعود إلى المرحلة النباتية الأولى. بحلول الفجر كان قد تجذّر تماماً بجانب القبر، رأسه فقط ظاهراً فوق العشب، وعيناه مغلقتان كمن ينام نوماً طويلاً.

نورا لمتعه، ثم تركت مكانه. قالت ليوسف بصوت هادئ:

«هو اختار أن يبقى معها بالطريقة الوحيدة التي يعرفها. لا توقظوه».

الحديقة بدأت تتغير. المكان الذي سقط فيه سُمّ ظلّ أسود لأيام، ثم نبتت فيه أعشاب غريبة داكنة لم يزرعها أحد. يوسف اقتلعها مراراً، لكنها كانت تعود. ندى ساعدته في اقتلاعها ذات صباح، وهمست:

«بعض الجذور ترفض الموت... تماماً كالغيرة».

في الليل كان الأربعة الباقون — يوسف ونورا وندى والجذع الصامت لثور — يجلسون أحياناً في صمت مشترك. لم يعد هناك اتحاد جنسي كثيف كما في السابق. كان هناك لمسات هادئة، همسات حزينة، ومحاولات خجولة لرسم خريطة جديدة للحياة وسط الرماد. يوسف بدأ يعتاد وجود ندى إلى جانب نورا، كأنهما وجهان لعملة خضراء واحدة: واحدة تذكّره بما كان، والأخرى بما يمكن أن يكون.

لكنه كان يعرف، وهو ينظر إلى القبر والجذع المتجذّر بجانبه، أن بعض الخسارات لا تُعوَّض. وأن الجذور الأخيرة التي تركوها في تربة المقطم لن تختفي بسهولة... حتى لو غطاها العشب الأخضر من جديد.

الفصل العشرون

الحب المستحيل الأبدي

مرت الشهور على هضبة المقطم كأنها سنوات.

يوسف لم يعد يسكن الفيلا نفسها. تركها بعد أن تكاثرت الأعشاب الغريبة الداكنة في الركن الذي مات فيه سُم، وانتقل إلى بيت صغير من الطين والحجر على حافة الصحراء، عند أطراف مدينة نصر. النافذة تطل على كثبان لا تنتهي، والسماء هناك أوسع وأقسى. رسم الكثبان كل يوم: صفراء، برتقالية، بنفسجية عند الغروب، سوداء في الليل. لم يلمس اللون الأخضر مرة واحدة. كلما حاول، كانت يداه ترتعشان، وصورة ليلى أو العصارة السوداء تعود فتفسد اللوحة.

نورا جاءت معه في البداية. بقيت أسابيع، تجلس معه في الصمت، تهمس له أحياناً عن فيردانيا، عن الضوء الذي فقدوه. ثم في ليلة هادئة، قبلته على جبينه، وهمست:

«أنا أعود إلى الحديقة... إلى ثور. هو ينتظر تحت التراب، وأنا لا أستطيع أن أترك جذورنا القديمة وحدها».

رحلت في الفجر. يوسف لم يمنعها. وقف على الباب يراها تبتعد نحو الهضبة، جسدها الأخضر يذوب تدريجياً في ضوء الصباح، حتى اختفت.

ندى بقيت.

لم تطلب شيئاً، ولم تعرض جسدها كما كانت نورا تفعل في الليالي الأولى. كانت فقط موجودة: تجلس معه على العتبة، تنظر إلى الكثبان، تلمس ذراعه أحياناً لمسة خفيفة حين يطول صمته أكثر من اللازم. في بعض الليالي كانا يتعانقان بلا اتحاد كامل، كمن يستدفئان من برد مشترك. وفي ليالٍ نادرة جداً كانا يتحدان بهدوء حزين، بلا الصراخ القديم، بلا الرحيق الغزير، فقط جسد ان يبحثان عن دفء مؤقت في صحراء واسعة.

يوسف كان يعرف أنها ليست نورا، وأنها لن تكون ليلى. لكنها كانت آخر خيط أخضر تبقى له من تلك الحديقة المجنونة. وكان هذا يكفي ليبقى حياً.

في إحدى الأمسيات، بعد أكثر من عام، عاد وحيداً إلى الفيلا القديمة. الحديقة كانت قد تحولت: العشب نما كثيفاً حول قبر ليلى، والجذع الذي تركه ثور قد غطاه الطحلب والأزهار البرية الصغيرة. مكان سُم ظلّ أغمق من بقية الأرض، كأن التربة ترفض أن تنسى. وقف يوسف طويلاً أمام القبر، ثم همس:

«انتهى كل شيء... أليس كذلك؟».

لم يرد أحد. فقط الريح حركت أوراق الجميز فوق رأسه.

قبل أن يرحل، لاحظ شيئاً صغيراً عند حافة الحفرة القديمة التي سقط فيها النيزك أول مرة. شيء أسود لامع، نصفه مطمورش. انحنى، أزاح التراب، ووجد علبة ثالثة صغيرة جداً، أصغر من العلبتين السابقتين. لم يفتحها. حملها في يده ونظر إليها طويلاً، ثم دفنها من جديد في مكان أعمق، وغطاها بالصخور.

عاد إلى بيته الصحراوي. ندى كانت في انتظاره على العتبة. لم يخبرها بما وجد. جلس بجانبها، ونظرا معاً إلى الكثبان التي تبتلع الشمس.

في الليل رسم لوحة جديدة: صحراء لا نهاية لها، وفي أقصى الأفق نقطة خضراء صغيرة جداً، شبه غير مرئية، كأنها بذرة أو وعد أو تهديد. علق اللوحة على الجدار المقابل لسريره، ونام.

بعيداً، فوق هضبة المقطم، تحت الصخور التي دفن تحتها العلبة الثالثة، كانت بذرتان جديدتان تنامان في الظلام. تنتظران مطراً، أو يدين بشريتين، أو نيّة أخرى لتبدأ الدورة من جديد.

لأن الحب المستحيل لا ينتهي.

هو فقط... ينتظر التربة المناسبة.